الفصل الحادي والعشرون
غزوتا حنـين والطائف

المبحث الأول: غزوة حُنين

أقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح (تسعة عشر يومًا) [البخـاري]، حتى جـاءت هـوازن وثقيف، فنزلوا بحنين يريدون قتال النبي ﷺ، وكـانوا قـد جمعـوا لـه قبـل ذلـك حـين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أخذوا في الاستعداد وحشد القوات لمواجهته [تاريخ الطبري، من مرسل عـروة، الذهبي: المغازي، حسن]، وقبل أن يهاجمها، وقد أرادوها موقعـة حاسـمة، ولـذا حشـدوا الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله. وكان يقـودهم مالـك ابن عَوف النصـري، واسـتنفروا معهـم غطفـان وغيرهـا [متفـق عليـه]. وممـن جمعهـم ابن عوف: بنو نصر - قومه - وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر وجماعات متفرقة مـن بنـي هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر وعـوف بـن عـامر، وثقيـف كلهـا في أحلافها، وبنو مالك [الذهبي، حسن؛ الحاكم، صحيح]، وتخلف عنهم مـن هـوازن كعـب وكلاب. [الذهبي، حسن؛ ابن إسحاق].

وخرج على رأس بني جُشَم يومذاك دُرَيْد بن الصِّمَّة، وكان شيخًا كبيرًا، لـيس فيـه شيء إلا التيمن برأيه، لأنه كان شيخًا مجربًا عارفًا بالحرب، فأنكر على مالـك النصـري الخروج بالنساء والأطفال والأموال، إذ يرى أن المنهزم لا يرده شيء، فلم يعمل مالـك برأي دريد. وقال دريد في شأن غياب كعب وكلاب: «غَابَ الحَدُّ والجد ولو كـان يَـوْمَ عَلاءٍ ورِفْعَة لم تغب عنه كعـب ولا كـلاب، وَلَـوَدِدْتُ أنكـم فعلـتم مـا فعلـت كعـب

وكلاب...» وذكرت له أقوال أخرى تدل على تجربته في الحروب وتوقعه الهزيمة لقومه، لأن الرأي كان لمالك، وهو صغير السن - ٣٠سنة - غير مجرب، بل اتهم مالك دريدًا بأنه كبر وقل علمه، وأقسم على هوازن بأن تطيعه هو وإلا انتحر، فأطاعوه، فأمرهم أن يكسروا جفون سيوفهم إذا رأوا المسلمين، ثم يشدوا شدة رجل واحد. [نفسه].

وكانت خطة مالك في الحرب أن رتب جيشه في صفوف حسنة، وقدم الخيل ثم الرجالة ثم النساء ثم الأغنام ثم الإِبل [مسلم]، وقد بلغ جيشه عشرين ألفًا [الواقدي]، فسار بهم إلى الرسول ﷺ.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي ليأتيهم ويدخل فيهم ويعلمه خبرهم، فجاءهم ومكث فيهم يومًا أو اثنين، ونقل خبرهم إلى الرسول ﷺ [مغازي الذهبي، حسن؛ الحاكم، صحيح].

ولعل هذا الخبر الذي نقله ابن أبي حدرد إلى الرسول ﷺ هو الذي تبسم له الرسول ﷺ وعلق عليه بقوله: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا - إن شاء الله**». وذلك عندما اقتربوا من العدو. [أبو داود، حسن].

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة استعد الرسول ﷺ لمواجهتهم، فاستعار من يَعْلى بن أمية ثلاثين بعيرًا وثلاثين درعًا واستعار مائة درع من صَفْوَان بن أمية وأعادها إليه بعد غزوة حنين، وشكره على ذلك [الذهبي: المغازي، حسن؛ الحاكم، صحيح]. ويروى أنه استقرض من حُوَيْطِبَ عبد العُزَّى أربعين ألف درهم [الاستيعاب]، وتقبل معونة قدرها ثلاثة آلاف رمح من نَوْفَل بن الحارث بن عبد المطلب [نفسه].

وبعد أن أقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا [البخاري]، خرج إلى حنين لستٍّ خلت من شوال، وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في

أواخر رمضان وسار سادس شوال وكان وصوله إليها في عاشره [البيهقي السنن الكبرى، النسائي، ابن حجر: الفتح] واستعمل عَتَّاب بن أَسِيْد بن أبي العِيْص أميرًا على مكة. [البخاري: التاريخ الكبير، حسب؛ ابن هشام، يعتضد؛ الإصابة].

وقد ثبت في الصحيحين أن الطلقاء قد خرجوا معه إلى حنين، دون تحديد لعددهم، وقال أهل المغازي إنه خرج معه ألفان من أهل مكة - الطلقاء - مع عشرة آلاف، من أصحابه الذين خرجوا معه لفتح مكة، فأصبحوا اثني عشر ألفًا [الذهبي: المغازي، حسن]، وهو أكبر جيش إسلامي يخرج في حياة الرسول ﷺ إلى ذلك الحين، ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلبوا من قلة، وعبر أحدهم [الواقدي، ابن إسحاق؛ دلائل البيهقي] عن هذا الشعور جهرة، وشق ذلك على رسول ﷺ، فعاتبهم القرآن وذكرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم إلى أنفسهم، ولقنهم درسًا بليغًا في هذا الشأن، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۢ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًۭٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[التوبة:٢٥] [دلائل البيهقي؛ له أصل] وحكى لهم الرسول ﷺ قصة نبي أعجبته كثرة أمته، فسلَّط الله عليهم الموت. [الدارمي؛ أحمد، صحيح].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من حُنين وحضرتهم صلاة العشاء، أمر أحد الصحابة بمراقبة العدو من فوق أحد الجبال المطلة على وادي حنين، فأدى الصحابي المهمة، ونقل إلى الرسول ﷺ خبرهم، وأنهم قد خرجوا بظعنهم ونعمهم وشائهم واجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا - إن شاء الله تعالى**»، وعندما حانت ساعة النوم تطوع أنس بن أبي مَرْثَد الغَنَوي بحراستهم إلى الفجر، فأثنى عليه النبي ﷺ ووعده بالجنة. [أبو داود، صحيح].

وفي الطريق إلى حنين رأى بعض الطلقاء شجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم تعرف بذات أَنْوَاط، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟

فقال: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[الأعراف:١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم» [ابن إسحاق، حسن؛ أحمد، ابن حبان] وفي هذا دليل على أن قلوب هؤلاء لم تشرب الإسلام بعد، لحداثة عهدهم به، بل روي أن ثمانين من الطلقاء قد خرجوا وهم على الكفر [مواهب القسطلاني، وشرحه للزرقاني]، وإذا كان الحال كذلك فلا غرابة من أن يعبر كَلَدة بن الحَنْبَل، أخو صفوان بن أمية لأمه، وهو أحد الطلقاء، عن فرحته بإدبار المسلمين في الجولة الأولى، قائلًا: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له أخوه صفوان - وهو على شركه آنذاك - اسكت، فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني [أي: ربًا لي أو ملكًا] رجل من قريش أحب إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن [أبو يعلى، حسن؛ ابن حبان]!!، وكان يقف زعماء مكة خلف الجيش ينظرون لمن تكون الدائرة، منهم: أبو سفيان وصفوان بن أمية وحكيم بن حزام [البداية، من حديث ابن عطية وعروة]. وكان صفوان في المؤخرة، ويرسل غلامًا له ليأتيه بالأخبار من المقدمة. [نفسه، من حديث عروة].

وعندما انهزم المسلمون في الجولة الأولى، كان أبو سفيان ينظر إليهم، وهو يحمل الأزلام، ويقول: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». [ابن إسحاق، الواقدي].

بادرت هوازن إلى حنين، فأدخلوا جيشهم بالليل في الوادي، وفرقوا كُمَنَاءَهم في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم قائدهم أمره بأن يرشقوا المسلمين بالسهام عند دخولهم وادي حنين المنحدر، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد [ابن إسحاق، حسن]، وشجعهم زاعمًا بأن المسلمين لم يلقوا من قبل مثلهم في الشجاعة والعدة والعدد والدراية بالحرب. [الواقدي].

وعبأ رسول الله ﷺ جيشه بالسحر، وعقد الألوية والرايات، ورتب الجند في هيئة صفوف منتظمة [الواقدي]، واستقبل بجيشه وادي حنين في عَمَايَةِ الصبح، أو غَلَسِهِ،

وانحدروا فيه [ابن إسحاق، حسن]، تتقدمهم على المجنبة الخيالة بقيادة خالد بن الوليد [مسلم] وفي طليعتها بنو سليم منذ خروجه من مكة. [الواقدي].

وعند دخول المسلمين الوادي حملوا على هَوَازِن فانكشفوا، فأكب المسلمون على ما تركوه من غنائم، وبينما هم على هذه الحال، استقبلتهم هوازن وأمطرتهم بوابل من السهام التي لا تكاد تخطئُ أحدًا. [متفق عليه].

ولم يكن المسلمون يتوقعون هذا، فضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، فولوا مدبرين، لا يلوي أحد على أحد [متفق عليه، ابن إسحاق، حسن]، وانحاز الرسول ﷺ ذات اليمين وهو يقول: «أين الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» [ابن إسحاق، حسن]. ومما يدل على عدم توقع المسلمين لمثل هذه الخدعة، أن بعضهم قد خرجوا خِفَافًا عَجِلِين دون استعداد حربي كامل، لا سيما بعض الشباب الذين خرجوا حاسري الرؤوس، وليس معهم السلاح الكافي. [متفق عليه].

وكان أول من أدبر خيالة المسلمين، ثم المشاة، وفر معهم الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى أنه لم يثبت مع الرسول ﷺ أحد سوى أبي سفيان بن الحارث [متفق عليه] وجماعة قليلة. [ابن إسحاق، حسن].

ومما يدل على الدور الكبير للطلقاء في هذه الهزيمة أن أم سُلَيم بنت مِلْحَان طلبت من الرسول ﷺ أن يقتلهم بحجة، أنهم انهزموا عنه، فقال لها رسول الله ﷺ: «**يا أم سليم. إن الله قد كفى وأحسن**». [مسلم].

كان الرسول ﷺ يمتطي بغلة له بيضاء - أو شهباء - تسمى دلدل، وهو يركضها وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ وعمه العباس آخذ بلجام البغلة، يكفانها عن الإِسراع نحو العدو [مسلم]. وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه

في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح للكرِّ ولا للفرِّ ولا للهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من يعرفه، وما هذا إلا ثقة بالله وتوكلٌ عليه وعلم منه بأنه سينتصر ويظهر دينه على سائر الأديان. [تفسير ابن كثير].

وأمر الرسول ﷺ عمه العباس - وكان قوي الصوت - أن ينادي الناس بالثبات، وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادها، ثم خص الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك لبيك، ودارت المعركة قوية ضد هوازن [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن، عبد الرزاق، صحيح]، ونزل الرسول ﷺ عن بغلته وهو يدعو [أحمد، حسن] الله أن ينصرهم، وقال: «**أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب**» [متفق عليه]، وأخذ يقاتل والصحابة يقاتلون معه ويتقون به لشجاعته وثباته كعادتهم في مثل هذه المواقف العصيبة [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن]. وعندما رأى الفارون موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم جاؤوا مسرعين ملبين الدعوة قائلين لبيك لبيك، حتى إن من لم يستطع أن يثني بعيره يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ويجالد الأعداء. قال الرسول ﷺ عندما رأى المعركة تشتد: «**هذا حين حَمِيَ الوَطِيسُ**» [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن]، ثم أخذ حَصَيَات، أو ترابًا، فرمى به وجوه الكفار، وهو يقول: «**شاهت الوجوه**»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، والرسول ﷺ يقول: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ محمد**»، وفي رواية أخرى: «**انهزموا ورب الكعبة**» **مرتين**. [مسلم].

وفي ضوء هذه الكيفية التي انهزم بها المشركون والمعجزة التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ يفهم قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[التوبة:٢٦][الطبري وابن كثير في التفسير]. **فقد حكى أحد**

أفراد جيش هوازن أنهم عندما أرادوا الوصول إلى الرسول حال بينهم وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شاهت الوجوه، فارجعوا، فهزموا من ذلك الكلام. [الذهبي: المغازي، جيد].

وحكى شيبة بن عثمان أنه عندما أراد قتل الرسول ﷺ ثأرًا لأبيه وعمه اللذين قتلهما علي يوم بدر، رفع له شواظ من نار حال بينه وبين الرسول ﷺ، كأنه البرق، فخاف أن يحرقه، فوضع يده على بصره وتقهقر، والتفت إليه الرسول ﷺ وطلب منه أن يدنو منه، فدنا منه، فقال: اللهم أذهب عنه الشيطان، فقذف الله الإيمان في قلبه، وطلب منه الرسول ﷺ أن يقاتل الكفار [مغازي الذهبي، له أصل]. وفي رواية أخرى: أن شيبة قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، إني أرى خيلًا بُلْغًا، فقال له الرسول: «يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر»، فضرب على صدره ثم قال: «اللهم اهد شيبة - ثلاثًا، فانقلب بغض الرسول حبًا عظيمًا». [الذهبي: المغازي].

وروى ابن إسحاق من حديث جُبير بن مُطْعِم أنه رأى قبل هزيمة القوم والناس يقتلون مثل الكِسَاءِ الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بينهم وبين القوم، فنظر فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم يشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم.

سَرِيّة أَوْطاس:

لم يثبت المشركون طويلًا في هذه الجولة الثانية من القتال، ففروا في نهاية اليوم مخلفين وراءهم كثيرًا من القتلى والأموال [ابن إسحاق، حسن]، وكان الرسول ﷺ قد أمر بتعقب الفارين وجزِّهم [البزار، برجال ثقات] لكسر شوكتهم حتى لا يجتمعوا للحرب مرة أخرى، ولذا عندما فرغ من حنين بعث أبا عامر - عُبَيْد بن سليم بن حضار الأسلمي - على جيش إلى أَوْطَاس [واد في بلاد هوازن] لقتال الكفار الذين عليهم دريد

ابن الصمة، فجالدهم أبو عامر الأشعري حتى استُشهد، وطلب من أبي موسى الأشعري، الذي خلفه في القيادة أن يبلغ الرسول ﷺ سلامه، وأن يطلب منه أن يستغفر له، فأكمل الأشعري المهمة وهزم الله على يديه الأعداء، وبلغ رسالة أبي عامر، فدعا الرسول ﷺ لأبي عامر. [متفق عليه].

وفي رواية أنه عندما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة في ستمئة نفس إلى جبيل أو أكمة، فلحق بهم الزبير بن العوام وجماعة من المسلمين فقضوا على ثلاثمئة منهم، منهم دريد بن الصمة نفسه. [البزار، حسن].

والذي نرجِّحه أن الزبير بن العوام كان في جماعة أبي عامر، فباشر قتل ابن الصمة، لأن رواية البخاري لم تبين القاتل، وقيل: إن الذي قتله رَبِيْعة بن رُفَيْع [ابن إسحاق]، وقيل عبد الله بن قُنَيْع بن أُهْبَان بن ثَعْلَبَة بن رَبِيعَة. [نفسه].

لقد انجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين، ومقتل وجرح عدد كبير هوازن وثقيف. فقد روي أن قتلى بني مالك من ثقيف لوحدها قد بلغ سبعين قتيلًا [البيهقي، الدلائل]، ولم يقتل من الأحلاف سوى رجلين، أحدهما من بني غِيَرَة والآخر من بني كُبَّة [ابن إسحاق]. وقتل بأوطاس من بني مالك ثلاثمئة، ومعهم دريد بن الصمة، كما ذكرنا، وقتل خلق كثير من بني نصر بن معاوية ثم من بني رِئاب، حيث استحر فيهم القتل، حتى قال عبد الله بن قيس - وكان مسلمًا-: يا رسول الله، هَلَكَتْ بنو رِئَاب، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجبر مُصِيْبَتَهُم**». [ابن إسحاق، ابن سعد].

وعندما لجأ المشركون إلى أوطاس ولحق بهم المسلمون، قتل أبو عامر وحده تسعة إخوة منهم قبل أن يستشهد، وقتل أبو موسى الأشعري أخوين من بني جُشَم ابن معاوية [ابن هشام]. وقتل أبو طلحة وحده يوم حنين عشرين رجلًا من المشركين وأخذ سلبهم، لأن رسول الله ﷺ قد أباح سلب المشرك لقاتله. [أبو داود، حسن].

ونهى رسول الله ﷺ يومذاك عن قتل النساء والأطفال والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، وذلك عندما مرَّ بامرأة قتلها خالد بن الوليد [ابن إسحاق] والناس متزاحمون عليها، وقال: «ما كانت هذه تقاتل». [الحاكم صحيح، أحمد، صحيح، أبو داود، صحيح].

أما بالنسبة للسبي والغنائم، فقد روي أن سبي حنين قد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء [عبد الرزاق؛ ابن سعد؛ الطبري: التاريخ]، وأن الأموال كانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأن الإِبل كانت أربعة وعشرين ألفًا، وأن الشياه أكثر من أربعين ألف شاه. [ابن إسحاق، ابن سعد].

وحبس الرسول ﷺ هذا السبي والغنائم بالجِعْرَانَة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف، كما سنرى.

وروي أن الشِّيماء بنت الحارث كان ممن وقع في الأسر، فادعت أنها أخت الرسول ﷺ من الرضاعة، فقال لها الرسول ﷺ: «**وما علامة ذلك؟**»، قالت: عَضَّة عَضِضْتَنيها في ظهري وأنا مُتَوَرِّكَتُكَ، فعرف الرسول ﷺ العلامة، فمتعها وردها إلى أهلها كما طلبت. [ابن إسحاق، الذهبي: المغازي، من مرسل قتادة - حسن].

وروي أن أمه من الرضاعة - حليمة السعدية - جاءته، فأكرمها وبسط لها ثوبه لتجلس عليه [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة - حسن، من مرسل عطاء].

وكانت خسارة المسلين طفيفة جدًا، فقد استشهد أربعة منهم، هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عُبَيد، ويزيد بن زمْعَة بن الأسود، وسُرَاقَة بن الحارث [ابن إسحاق]. وجرح عدد منهم، منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي [البزار، حسن]، وعبدالله ابن أبي أوفى [البخاري]، وخالد بن الوليد. [الحميدي: المسند، حسن].

عندما انهزمت هوازن وثقيف وأحلافهم تفرقوا في الأودية والجبال، فلجأت ثقيف بقيادة مالك بن عوف إلى حصونها بالطائف، ولجأ آخرون إلى وادي أوطاس، وانحاز بنو غيرة إلى نخلة. وقد تبعت خيل المسلمين من سلك إلى نخلة، ولم تتبع من سلك إلى الثنايا. [ابن إسحاق].

المبحث الثاني: غزوة الطائف

بعد أن تعقب المسلمون فلول الهاربين من هوازن في أوطاس ونخلة، توجهوا للقضاء على ثقيف التي فرت من حنين وأوطاس وتحصنت بحصونها المنيعة في الطائف، وأغلقت أبوابها بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية للصمود لمدة عام، واتخذت وسائل دفاعية تمكنها من الصمود مدة طويلة، ورممت حصونها وأوفدت عُرْوَة بن مسعود وغَيْلَان بن سَلَمَة إلى جُرَش ليتعلما صنعة الدَّبَّابَات والمَجانيق، والضُّبُور، ولذا لم يحضرا حنينًا مع قومهما. [ابن إسحاق، ابن سعد]..[الدبابات: آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، ويتصلون بحائط فينقبون عن أهله؛ والضبور: شيء يُتَّقى به عند الانصراف].

ووصل المسلمون إلى حصون الطائف في نحو نهاية الأسبوع من شوال كما يستنتج من وقائع الأحداث، ونزلوا قريبًا من حصونهم، ثم تحولوا إلى منطقة أكثر بعدًا من مدى سهام ثقيف، التي تسببت في استشهاد اثني عشر مسلمًا وجرح عدد منهم [ابن إسحاق، ابن سعد]، وبنوا فيها مسجدًا، يعرف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس، وكانت الطائف آنذاك جنوبي غربي المسجد.

ولما كان القتال تراشقًا بالسهام على بُعد، استخدم المسلمون (الدبابة) ليحتموا بها من السهام، حتى يصلوا إلى الحصن فيثقبوه، وعندما رأتهم ثقيف، ألقت عليهم قطعًا

من حديد محماة فأحرقت (الدبابة)، فخرج أصحابها من تحتها فأصابوهم بالسهام، فقتلوا منهم رجالًا. [ابن إسحاق].

واستخدم المسلمون المجانيق في رمي أهل الطائف، وهم أول من رمى في الإسلام المجانيق [ابن إسحاق، أبو داود: المراسيل، حسن]. وقد بذلوا الوسع في الرمي به، لا سيما وقد وعدهم الرسول ﷺ درجة في الجنة عندما قال لهم: «**مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ في سبيل الله فَلَهُ درجةٌ في الجنة، ومن رَمَى بِسهم في سبيل الله عز وجل فَهُوَ له عَدْلُ مُحَرَّر** [أي مثل ثواب تحرير رقبة]، **ومن أصابه شيب في سبيل الله عز وجل فهو له نور يوم القيامة**» [أحمد، صحيح؛ الترمذي، صحيح؛ النسائي].

وقد تباينت الروايات الضعيفة فيمن جلب المجانيق أو صنعها، فهناك من يذكر أنه خالد بن سعيد، ومن يذكر أنه سلمان الفارسي، ومن يذكر أنه الطفيل بن عمرو. [الواقدي].

وفي محاولة لإضعاف معنويات ثقيف شرع المسلمون في حرق بساتين نخيلهم وعنبهم، فناشدوه أن يدعها لله وَلِلرَّحِمِ، فاستجاب لهم، بعد أن حققت المحاولة أهدافها [البيهقي: السنن من مرسل ابن عقبة وعروة، ابن إسحاق، من مرسل عمرو بن شعيب].

ونادى منادي رسول الله ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون، منهم أبو بَكْرَة - نُفَيع بن مَسْرُوح - الثقفي، فأسلموا، فأعتقهم النبي ﷺ ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم. [البخاري؛ عبد الرزاق؛ الطبراني برجال الصحيح، وسمي بأبي بكرة لنزوله من الحصن ببكرة].

وعندما استعصى الحصن على المسلمين واستشهد اثنا عشر رجلًا [ابن إسحاق، أحمد]، بينما لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة [ابن إسحاق]، دعا رسول الله ﷺ إلى فك الحصار، فثقل ذلك على المسلمين واستنكروه، وعندما كثرت فيهم الجراحات،

ودعاهم الرسول ﷺ إلى فك الحصار مرة أخرى، أعجبهم ذلك، فتبسم الرسول ﷺ، فارتحلوا [متفق عليه]، والرسول ﷺ يطمع في هدايتهم ويرفض طلب بعض المسلمين في الدعاء عليهم ويدعو لهم قائلًا: «**اللهم اهد ثقيفًا**» [الترمذي؛ صحيح؛ ابن إسحاق؛ ابن سعد]، ويروى أن الله لم يأذن له في أهل الطائف. [الذهبي: المغازي، من مرسل عروة وابن عقبة؛ ابن سعد، من مرسل البقري؛ ابن إسحاق].

تباينت الروايات حول المدة التي قضاها الرسول ﷺ في حصار الطائف. فيرى عروة وابن عقبة أنها كانت بضع عشرة ليلة، وفي رواية عن عروة أنها كانت نصف شهر [الطبري: التاريخ، مرسل حسن]. ويذكر ابن إسحاق [السيرة مرسلًا] مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائل البيهقي؛ مرسل حسن]. ويذكر ابن إسحاق [السيرة مرسلًا] مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائل البيهقي؛ مرسل حسن]. ويذكر ابن هشام أنها سبع عشرة ليلة، ويروي مسلم وأحمد [المسند] أنها أربعون يومًا.

والذي يكاد يتفق مع مجريات الأحداث هو ما ذكره موسى بن عقبة وعروة ابن الزبير وابن هشام، وما في الصحيح أصح.

عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى الجعرانة حيث ترك غنائم حنين قبل أن يتحرك لحصار الطائف. وعندما عاد لم يقسم هذه الغنائم سوى بعض الفضة [الحاكم، وصححه]، واستأنى بها بضع عشرة ليلة، آملًا في قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام [البخاري]، ثم وزعها بعد ذلك على المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئًا. فقد أعطى مائة من الإبل لكل من عُيَينة بن حِصْن - من زعماء غطفان - والأقرع ابن حَابس - من زعماء تميم - وعَلْقَمَة بن عُلَاثة والعباس بن أمية - من زعماء قريش

[متفق عليه]. وقد أحصى ابن إسحاق اثنى عشر رجلًا ممن نال مائة من الإبل، ستة منهم ذكرهم البخاري ومسلم. وممن زادهم على ما في البخاري ومسلم: معاوية ابن أبي سفيان، والحارث بن الحارث، ومالك بن عوف، والعلاء بن جَارِيَة، والحارث ابن هشام، وحُويطِب بن عبد العزى، ولم يذكر من قائمة البخاري ومسلم: عَلْقَمة ابن عُلَاثَة والعباس بن مِرْدَاس، وذكر خمسة من أعطوا أقل من مائة.

وأورد ابن هشام قائمة بأسماء تسعة وعشرين رجلًا من المؤلفة قلوبهم ممن أعطوا من غنائم حنين، ولم يحدد عدد الإبل التي نالها كل واحد منهم. وهناك من أوصل عددهم إلى سبعة وخمسين رجلًا. [قريبي: مرويات حنين].

وكان هذا الموقف تجاه المؤلفة قلوبهم لحكمة وضحها الرسول ﷺ للأنصار عندما غضبوا من هذا التوزيع وحرمانهم من الغنيمة، وبلغ الرسول ﷺ قول بعض أحداثهم: «إذا كانت الشدة نُدْعَى، وتُعطى الغنائمُ غَيْرَنا»، أو «يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!» [متفق عليه]، فجمعهم وقال لهم: «**أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبوا برسول الله ﷺ تَحُوزُنَه إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى، يا رسول الله رضينا. فقال: «**لو سلك الناس واديًا، وسلكت الأنصار شِعْبًا، لأخذت شِعْب الأنصار**» [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن]، وقال في رواية: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ الأنصار شِعَار**[الثوب الذي يلي الجسد] **والناس دِثَار،**[ثوب فوق الشعار] **ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار...**» [مسلم]، وقال: «**إني أعطي قومًا أخاف ظلعهم وجزعهم، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء، منهم عمرو بن تَغْلِب**»، فقال عمرو بن تغلب: «ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرُ النَّعَم» [البخاري]، وقال: «**إني لأعطي رجالًا حَدِيثٌ**

عهدهم بكفر» [متفق عليه]، وفي رواية: «**إن قريشًا حديثو عهـد بجاهليـة ومصـيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم**». [متفق عليه]، وقـال: «**أَوَجـدْتُم يـا معشــر الأنصـار في أنفسكم في لُعَاعَة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم،... اللهـم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**» [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن، أحمـد، حسن]، وقـال: «**إني لأعطـي الرجـل وغـيره أحـب إليَّ منـه، خشـية أن يُكَـبَّ في النـار على وجهه**». [مسلم].

وعندما سمع الأنصار ما قاله لهم الرسول ﷺ، عرفوا الحكمة من ذلـك التقسـيم، وبكوا حتى ابتلت لحاهم بـدموعهم، وقـالوا: «رضـينا برسـول الله ﷺ قَسْـمًا وحَظًّـا» [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن، وأصله في البخاري ومسلم].

واتضحت لهم الحكمة عمليًا عندما رغب هؤلاء المؤلفة قلوبهم في الإسلام وحسن إسلامهم وانخرطوا في الجهاد، إلا القليل جدًا منهم، مثل عيينـة بـن حصـن الفـزاري والأقرع بن حابس. وقد عبر عن هذه الظاهرة الإمام مالك بن أنس [مسلم] قـائلًا: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الـدنيا وما عليها». وعبر صفوان بن أمية عن التحول الذي حدث نتيجة لهذا الموقـف الكـريم من الرسول ﷺ فقال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لَأَبْغَضُ الناسِ إليّ، ما بَرِحَ يُعْطِينِي حتى إنه لَأَحَبُّ الناس إليّ» [مسلم]. وكـان حَكِـيم بـن حِـزَام كلـما أعطاه سأله المزيد، فوعظه الرسول ﷺ قائلًا: «**يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ، فمن أخذه بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُوْرِكَ له فيه، ومن أخـذه بِـإِشْرَاف نفس لم يُبَـارِكْ لـه فيـه، وكـان كالذي يأكل وَلَا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»، فقال حكيم: «والذي بعثـك بالحق لا أَرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا»، فلم يأخذ عطاءه من بيت المال حتى توفي. [متفق عليه].

وعندما لم تتضح حكمة هذا التقسيم لدى بعض جُفَاةِ الأعراب - أيضًا - قال أحدهم للرسول ﷺ: «يا محمد! اعدل» فقال له الرسول: «**ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**». فاستأذن عمر النبي ﷺ في ضرب عنقه، فقال له النبي ﷺ: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي! إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يُجاوِزُ حناجرهم، يَمْرُقُون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، واللفظ لمسلم. وفي رواية ثانية له زاد: «... **إن من ضِئْضِئِ** [أصل] **هذا قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان... لأن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**». وجاء وصف هيئته في هذه الرواية: كث اللحية، مشرف [غليظها]، غائر العَينَين، ناتئ [بارز] الجبين، محلوق الرأس. وزاد مسلم في رواية ثالثة: «...**مُشَمَّرُ الإزار**». وازدحموا على الرسول ﷺ وهو يقسم الغنائم، حتى علق رداؤه بغصن شجرة، فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاه - شجر الشوك - نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**» [البخاري]. وجبذه أحدهم جبذة شديدة أثرت في عاتقه لخشونة البرد الذي كان عليه، وقال: «مر لي من مال الله الذي عندك»، فالتفت إليه الرسول ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء [نفسه]. ودل هذا الموقف من الأعراب على أن معظمهم إنما خرج للمغنم، ودل موقف الرسول ﷺ من تصرفاتهم على صبره وحكمته في تربية أمثال هؤلاء الأعراب.

بعدما فرغ الرسول من توزيع الغنائم، قدم عليه وفد هوازن يعلن إسلامهم، ويطلب رد الأموال والسبي إليهم، فخيرهم بين المال والسبي، فاختاروا السبي، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه في الأمر، ومما قال لهم: «من أحب أن يُطَيِّبَ فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حَظِّهِ حتى نُعْطِيَهُ إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل،

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم. فقال: «**إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يَرْفَعَ إلينا عُرَفَاؤُكم أمركم**»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا فأذنوا [نفسه]، سوى الأقرع بن حابس، الذي تكلم باسم قبيلته تميم، وعيينة بن حصن الذي تكلم باسم قبيلته فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها. [ابن إسحاق، حسن].

وسأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، وطلب منهم أن يخبروه إن أتاه مسلمًا رد عليه أهله وماله ومنحه مائة من الإبل، وعندما أخبروه بذلك احتال في الخروج من الطائف، خشية أن يقتله قومه ثقيف، ولحق بالرسول الله ﷺ بالجِعْرَانة أو بمكة، فأعطاه الرسول ﷺ ما وعد به، وأسلم، وحسن إسلامه، فاستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا. [ابن إسحاق، يعتضد].

ومال بعض زعماء ثقيف للإسلام، منهم عُروة بن مسعود الثقفي، فلحق بالرسول ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أداء العمرة، فأعلن إسلامه، وعاد داعيًا إلى الإسلام في قومه، فقتلوه، ودفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف حسب وصيته. [ابن إسحاق].

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في رمضان من العام التاسع، جاء وقد ثقيف معلنًا إسلامهم، كما سنرى في خبر الوفود.

المبحث الثالث: أهم الأحكام المستنبطة من غزوتي حنين والطائف:

١ – جواز وطء المسبية بعد الاستبراء، جاء ذلك عندما سأل الصحابة الرسول ﷺ في سبي أوطاس فنزلت الآية: ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾[النساء: ٢٤] [مسلم؛ تفسير الطبري وابن كثير].

٢ – النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين [أحمد، حسن؛ الحاكم، صحيح؛ أبو داود]. وقد تكرر هذا النهي في عدة مناسبات.

٣- إقامة الحد في دار الحرب، فقد فعل ذلك النبي ﷺ بشارب الخمر في حنين. [أحمد؛ أبو داود؛ الدارقطني: السنن، حسن لغيره].

٤- منع المخنثين من الدخول على النساء الأجنبيات، وذلك عندما سمع الرسول ﷺ أحد المخنثين - في بيت أم سلمة - يصف بَادِيَة بنت غَيْلان الثقفي لأخيها عبد الله، ويطلب منه أن يحصل عليها، وذلك قبيل حصار الطائف، فقال ﷺ: «**لا يَدْخُلَنَّ هؤلاء عليكن**». [متفق عليه].

٥- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم، إذا رأى الإمام أن في ذلك سببًا لدخولهم في الإسلام، أو كف أذاهم، أو فيه مصلحة للمسلمين.

٦- تشريع العمرة من الجعرانة للداخل إلى مكة، كما فعل الرسول ﷺ بعد الفراغ من توزيع غنائم حنين [متفق عليه]. أما الخروج من مكة إلى الجعرانة للإحرام منها فهو ما يفعله العوام وليس بسنة. [الزاد].

٧- التأكيد على إباحة سَلَب المشرك لقاتله.

٨- جواز الاستفادة من أدوات الحرب التي يمتلكها المشركون، كما فعل الرسول ﷺ عندما استعار دروعًا من صفوان بن أمية مع ضمانه لها، على أن لا يكون في ذلك أي تأثير على صبغة الحرب.

٩- جواز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية. [نفسه].

١٠- جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم، وهو أنكى لهم.

١١- من كمال رأفته ورحمته ﷺ أن يدعو بالهداية لمن حاربوه وقتلوا جماعة من أصحابه، كما فعل الرسول ﷺ مع أهل الطائف - ثقيف. [نفسه].

١٢- لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا بعد يوم، فإنها شعائر الكفر، وهي أعظم المنكرات [نفسه]، كما فعل الرسول ﷺ مع ذي الكَفَّين وإرسال أبي موسى الأشعري لهدمه - سيأتي ذكره في أول الفصل التالي.

١٣- إن وادي وَجّ - هو واد بالطائف - ليس بحرم، وإن الأحاديث الواردة في أنه حرم ضعيفة. [د. العمري: المجتمع المدني].

١٤- جواز خروج بعض النساء مع أزواجهن في الغزو، لعلاج الجرحى وسقيهم، بدليل خروج أم سُلَيم بنت ملحان مع زوجها أبي طلحة إلى غزوتي فتح مكة وحنين، [كما ثبت في صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٢/ ح١٠٨٩)].

ولا يعارضه حديث أم كَبْشَة العُذْرية القُضَاعية التي روى ابن أبي شيبة وغيره أنها قالت: يا رسول الله، إني لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض أو أسقي المريض. فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ولكن اجلسي**».

فالحديث كما حققه الدكتور خالد الدريس، فيه انقطاع، لعدم ثبوت اللقاء بين سعيد بن عمرو وأم كبشة، ورجاله ثقات.